(١٤) ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين..

قال المؤلف –رحمه الله– (**ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حضر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار موسوساً تائهاً شاكاً زائغاً لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذبا**).

➢ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، قال الطحاوي –رحمه الله–: (**ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم و الاستسلام**)

عبارةٌ جميلةٌ محكمة (**لا تثبت قدم الإسلام**) يعني قدم المسلم على إسلامه إلا على ظهر التسليم والاستسلام، إذ أن التسليم والاستسلام أرضٌ ثابتةٌ قارة وقاعدةٌ مطمئنة فلا يثبت قدم الإسلام إلا على التسليم والاستسلام، والتسليم والاستسلام بمعنى لكن ربما حمل على هذا السجعة، فبين أنه لا يثبت إسلامٌ إلا باستسلام، ونحن إذا رجعنا إلى تعريف الإسلام إصطلاحاً فإنه يعني الاستسلام لله بالتوحيد والإنقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك.

هذا الإسلام هو دين الله تعالى الذي لا دين له سواه، خلافاً لمن يتوهم أن لله أدياناً عدة فبعضن الناس يظن أن من أديان الله الإسلام واليهودية والنصرانية وهذا خطأ دين الله واحد، دين الله الإسلام كما قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ } [آل عمران/١٩] ليس لله إلا دين واحد هو الإسلام ولهذا قال: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران/٨٥] .

لكن ينبغي أن نعلم أن الإسلام له معنيان معنىً عام ومعنىً خاص، فالإسلام بالمعنى العام هو الاستسلام لله بالتوحيد والإنقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك، وبهذا بعث الله جميع أنبياءه ورسله ما بعث الله نبياً إلا قال لقومه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف/٥٩] ، وقال سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء/٢٥] هذا هو التوحيد هذا هو الإسلام الذي بعث الله به جميع أنبيائه لا تختلف لغتهم في ذلك ولهذا قال الله تعالى {لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة/٢٨٥] ، وذم الله ونعى على من يكفر بالله ورسله ويفرق بين الله ورسله، فدعوى الأنبياء واحدة كلهم يدعوا إلى التوحيد والاستسلام لله وحده.

ولهذا يقولون في أخبارهم وفي إخبارهم وفي خطاباتهم وأنا أول المسلمين وكذلك أتباعهم {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل/٤٤]، كذا الحواريون {وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران/٥٢] ، {وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة/١١١] ، فجميع أنبياء الله جميع أتباعهم مسلمون هكذا نطقوا وعبروا وعرفوا أنفسهم.

أما الإسلام بالمعنى الخاص فهو ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من العقائد الصحيحة والشرائع العادلة والأخلاق القويمة والآداب الرفيعة الذي أكمل به الدين وأتم به النعمة هذا هو الإسلام بالمعنى الخاص، وهو غير معارضٍ لما قبله بل هو مصدقٌ له ومهيمنٌ عليه، فلا بد أن ندرك العلاقة بين الشرائع السماوية المتعاقبة هي ليست علاقة تعارض بل علاقةُ تصديق واحتواء.

فإن الله سبحانه وتعالى ذكر في سورة المائدة ذكر موسى والتوراة، وذكر عيسى والإنجيل، ثم ثلث بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآن فقال بعد ذكره موسى وعيسى والتوراة والإنجيل قال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة/٤٨] ، فهو مصدقٌ لأخباره مهيمنٌ على أحكامه، ولفظ الهيمنة يدل على أنه حاكمٌ قاضٍ شاهد على ما مضى فيثبت وينسخ، فجاء هذا الدين مستوعباً لما في قبله من الشرائع السابقة من الأخبار الصحيحة والعقائد المتينة ومثبتاً لبعض شرائعها وناسخاً لبعضها، فهذا هو الإسلام بالمعنى الخاص.

وأما اليهودية والنصرانية فإنها ليست أديانٌ لله تعالى بل إن الله تعالى ذكرها في سياق الذم فقال: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } [البقرة/١٤٠] ، – {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا } [آل عمران/٦٧] ، وقال: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة/١٣٠] ، فالله تعالى لم يبعث موسى باليهودية ولم يبعث عيسى بالنصرانية وإنما بعث جميع أنبيائه بالإسلام.

أما اليهودية فهي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد تحريف الحاخامات والأحبار، وأما النصرانية فهي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد تحريف الرهبان والقسس والأساقفة فصارت تسمى يهودية وتسمى نصرانية، فأصلها صحيح أصلها دينٌ منزلٌ من عند الله ولكن لما دخلت عليها هذه الإضافات وهذه التحريفات اكتسبت هذا الاسم الخاص.

فإذاً: ليس لله إلا دينٌ واحد فلهذا يخطئ من يعبر ويقول الأديان السماوية إلا أن يذكرها مقيدة بأن يقول الأديان ذات الأصل السماوي لكن لا يقال أديان سماوية بمعنى أن كل دينٍ منها مخالفٌ للآخر في أصله.

أما الشرائع فإنها تختلف فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوةٌ لعلات) يعني كأبناء الضرائر أبوهم واحد وأمهاتهم شتى يعني دينهم واحد وشرائعهم متنوعة، المهم أنه لا بد في شرط الإسلام من التسليم والاستسلام.

(فمن رام علم ما حضر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة

وصحيح الإيمان) من لم يقنع بالتسليم وإنما قال: كلا أنا أؤمن بما يدل عليه عقلي وما يقبله عقلي أو ذوقي أو حالي أو نحو ذلك وجعل ذلك حاكماً على ما جاء به النبي فهذا لم يحقق الإسلام الذي أمر به فيحجبه مرامه ذلك عن خالص التوحيد فلا يحقق حقيقة التوحيد ولا يحصل صافي المعرفة بل تكون مشوبة بدرجةٍ من الدرجات ولا يحقق صحيح الإيمان بل إيمانه فيه فساد، ربما كان فساداً مخرجاً عن الملة وربما كان دون ذلك.

لهذا قال: (**فيتذبذب بين الكفر والإيمان)** والتذبذب هو التردد وهي من صفات المنافقين كما قال ربنا عز وجل: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ } [النساء: ١٤٣]، أما المؤمن فشأنه أنه ينحاز إلى الهدى والوحي والحق ولا يتردد كما يفعل المنافق الذي يقبل ويدبر كما وصفه الله تعالى في سورة البقرة ببضع عشرة آية وقال مشبهاً لهم: {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا } [البقرة: ٢٠].

قال: (**فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار موسوساً تائهاً شاكاً زائغاً لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذبا)** إذاً هذا توصيفٌ لحال المتردد المنافق الذي لم يجد حلاوة الإيمان ولم يطمئن قلبه بالإسلام فهو تارةً ينزع إلى هواه وتارةً ينزع إلى معقولته وتارةً إلى عادات قومه وتارةً إلى كذا وكذا، وتارةً يروق له شيء مما جاء به الرسل فهو متذبذب متأرجح لا تستقر له قدم.

فالإيمان الحق هو أن يسلم الإنسان وجهه لله رب العالمين ويخضع للنص فإذا جاء النص عن الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خضع له وطأطأ رأسه وقبله وطابت به نفسه كما قال ربنا عز وجل: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: ٦٥] هذه حقيقة الإيمان فمن حققها حصل خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان وسلم من التذبذب والإنكار وعافاه الله تعالى من الوسوسة، والوسوسة هي حديث النفس، والتيه هو الضياع قال موسوساً تائهاً شاكاً والشك هو أن يبقى الإنسان بين تصديقٍ وتكذيب بدرجةٍ متساوية، (زائغاً) والزيغ هو الإنحراف والميل وخلاصة ذلك كله لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذبا وبئس الحال.

ولهذا يمنع بهذه الحال البئيسة من سلك مسلكاً غير مسلك أهل السنة والجماعة وهذا ما وقع فيه المتكلمون الذين ارتضوا المسالك الكلامية المبنية على المقدمات العقلية والمنطق الأرسطي اليوناني لا يطمئنون بسبب هذه المسالك والمناهج الدخيلة بل يصابون بالوحشة وعدم الإستقرار حتى إن كبارهم يصرحون بهذا ويقولن في هذا قولاً عظيماً، يقول الرازي وهو من كبار المنظرين ومقعدي أقوالهم يقول في آخر عمره:

نـهايـة إقـدام العـقول عقـال ** وأكثر سعي العالمين ضـلالُ

وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ** وغاية دنيانا أذىً ووبـــــالٌ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ** سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

ويقول الشهرستاني:

لعمرك قد طفت المعاهد كلها ** وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرى إلا واضعاً كف حائرٍ ** على ذقنٍ أو قارعاً سن نـــادمٍ

وهو يصف حال هؤلاء المتكلمين الذين تتجاذبهم المقالات والأهواء، ويقول غيره إني آوي إلى فراشي فأضع الملحفة على وجهي فيدلي هؤلاء بحججهم فأنقلب على شقي الآخر فيدلي هؤلاء بحججهم فلا أزال على ذلك حتى يروق الفجر، ما بهذا أمرنا ولا بهذا تعبدنا بل إن الله تعالى أنزله ديناً ليكون طمأنينةً للنفوس وانشراحاً للصدور لا أن يكون شقاءً لهما، فدل ذلك على أن من لم يسلك طريق أهل الهدى فإنه سوف يبوء بهذه النتيجة.

يقول الجويني: قد خضت البحر الخضم وتركت علوم أهل الإسلام واشتغلت بعلم الكلام وإن لم ينقذني الله تعالى فيا ويل أمي أو ياويلاه أو كلاماً مثل هذا، وكان يتمنى أن يموت على عقيدة عجائز نيسابور، فكل ذلك يدلنا على أن من شرط الإيمان الصحيح والهدى والطمأنينة أن يحقق الإنسان الاستسلام لله عز وجل.

قال الشيخ: (**ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه**) وهذا حق وذلك أن الإنسان يعتليه قصورٌ وتقصير فربما اشتبه عليه شيء من الأشياء وهذا الاشتباه ليس راجعاً إلى النص وإنما هو راجعٌ إلى الفهم، وذلك أن الله سبحانه تعالى قد وصف كتابه كله بأنه محكم فقال سبحانه: { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} [هود: ١]ووصفه بأنه حكيم بمعنى حاكم ومحكم، كما أن الله تعالى وصف كتابه بأنه كله متشابه لكن التشابه الذي وصف به كله يراد به أن بعضه يشبه بعضاً وأن بعضه يصدق بعضاً لكن وقد عرفنا الإحكام العام والتشابه العام يبقى أن هناك إحكامٌ خاص وتشابهٌ خاص وهو الذي دلت عليه آية ال عمران قول الله عز وجل: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٧] يعني عامته وجملته، {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧].

إذاً: أثبت الله تعالى بأن ثم آيات متشابهات يعني تشتبه على بعض الناس {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: ٧]يعني إذا لاحت لهم هذه الآيات حمالة الأوجه التي تحتمل أكثر من معنى زاغت بهم الأهواء وصاروا ينزعون إلى المعاني الباطلة ويتشبثون بدلالةٍ موهمة من هذه الآيات، ثم قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ٧]، فالشيخ –رحمه الله– أشار إلى مسلك الراسخين في العلم في ما اشتبه عليهم علمه وهو أنهم يكلون ما اشتبه عليهم علمه إلى الله عز وجل.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين